الفلاح والقرية

فلاحنا المصرى

بقلم الدكتور أحمد حسين

وكيل إدارة التعاون والفلاح

خطر لى قبل كتابة هذا المقال أن أطلب إلى بعض اخوانى أن يجيبوا على هذا السؤال: من هو الفلاح؟ وقد كان منهم الطبيب والاخصائى الزراعى والاقتصادى وغير هؤلاء ممن لهم صلة بالفلاح وشؤونه . وكان ظنى أنهم سيتفقون جميعا على صورة واحدة للفلاح أستطيع أن أقدمها للقارئ ولكنى وجدت نفسى على العكس من ذلك أمام مجموعة من الصور والآراء يختلف بعضها عن بعض كل الاختلاف ، وانى لمورد هنا أمثلة قليلة من الأجوبة المتباينة على ذلك السؤال البسيط : من هو الفلاح؟ ألقيت هذا السؤال على أحد الاخصائيين الزراعيين الذين درسوا فى المعاهد الأوربية فأجاب فلاحنا يمثل أعلا درجات الجد والنشاط وقل أن تجد بين فلاحى العالم من يجاريه فى هذه الصفات ، فهو يعمل من طلوع الشمس الى غروبها لا يعوقه برد أو قيظ ولا يقعده مرض أو جوع ، وهو على عكس ما يعتقده فيه الكثيرون ، من أحسن الناس دراية بصنعته واتقانا لها ويتطلب عمله خبرة بنواح متنوعة عديدة ، فمن معرفة بأنواع بالأراضى وخدمتها واصلاحها إلى دراية بالماشية وتربيتها والعناية بها الى خبرة بأنواع البذور وآفات الزرع وأحوال الجو وغير ذلك ، ومهارته فى عمله بحقله لا تقل عن براعة أمهر الصناع فى صناعته حتى لترى حقل القطن المخطط بيده وكأنه قد رسم بالمسطرة وحقل الأرز المسحوب وكأنه قد سوى بميزان المياه على أننا مع ذلك لا يمكن أن ننكر أن حرمان الفلاح من التعليم والتثقيف يجعله نافرا من التعاليم الزراعية الحديثة التى تؤدى الى تحسين انتاجه كما أن مستواه الثقافى الحالى لا يمكنه من استغلال عمله ومجهوده على أتم وجه .

ثم ألقيت السؤال نفسه على طبيب ممن زاولوا مهنتهم فى الريف فأجاب ببساطة : الفلاح المصرى عبارة عن مجموعة متحركة من الأمراض ، فجسمه يجمع بين البلهارسيا والانكلستوما والرمد والملاريا وأمراض سوء التغذية . والفلاح هو ذلك العليل الهزيل الشاحب الوجه الذى يقف بأبواب المستشفيات فلا تتسع له وهو عاجز عن أداء أجر العلاج وثمن الدواء للأطباء والصيادلة وهو بجانب ذلك مريض متعب لا يبحث عن الطبيب إلا بعد استفحال

الداء ولا يكاد يشعر بتقدم فى صحته حتى ينقطع عن العلاج فيعود إليه المرض أشد مما كان . وقد ثبت أن الأمراض المتوطنة المنتشرة فى الريف تؤثر فى القوى البدنيـة وفى النمو العقلى أسوأ تأثير و يقدر بعض الباحثين مجهود الفلاح المصاب بتلك الأمراض بثلث مجهود الرجل السليم ومما يؤيد هذه الحقيقة أن أحد الانجليز المشتغلين بالزراعة فى مصر قدر أن حفر قناة فى انجلترا يكلف أقل من حفرها فى مصر مع أن العامل الانجليزى يتقاضى أضعاف أجر العامل المصرى و يعمل ساعات أقل .

سألت صديقا آخر من رجال الاقتصاد فقال : كلمة الفلاح هذه تشمل طبقات كثيرة . فهى تشمل طبقة الملاك كبارهم وصغارهم وطبقة المستأجرين وطبقة العمال الزراعيين و يمكننى أن أقرر عن ثقة أن الفـلاح على العموم فى مركز اقتصادى سيء فكثير من الملاك مرهونة أراضيهم للبنوك العقارية التى تستحوذ على معظم دخلهم وتهدد ملكياتهم ، والمستأجرون غارقون فى الدين أيضا ، تضافرت عليهم الأزمات وآفات القطن وانخفاض أسعار المحاصيل حتى أصبحوا يكدون طول العـام فلا يفيدون فى نهايته إلا الوقوع فى دين جديد ، أما العامل الزراعى ومنه تتكون غالبية الزراع ، فهو أشد الجميع بؤسا إذ لا يتجاوز أجره اليومى قرشين أو ثلاثة و يا ليت عمله كان متصلا بل إنه يعمـل يوما و يتعطل آخر حتى قدر بعض الاخصائيين أن عدد الأيام التى يعملها طول السنة لا يتجاوز مائة وثمـانين يوما . ومعنى هذا أن دخله اليومى يتراوح بين قرشين وقرش ونصف وهو مبلغ لا يفى بأدنى مطالب الحياة .

وسألت أديبا بائسا من المفتونين بجمال الريف فقال : الفلاح أسـعد مخلوق فى الوجود فهو ينعم بهدوء الطبيعة وجمالها ، يستيقظ على أذان الديكة وينام على تغريد الطيور هادىء البـال لا يحمـل هما فى حياته وليس وراءه صاحب منزل يطالبه شهريا بالايجـار ولا بدال أو قصاب أو خباز يلح عليه فى الوفاء بحسابه . وهو فوق كل ذلك غارق فى خيرات الريف يعوم فى بحر من السمن والعسل و بيته يعج بالدجاج والأوز و يعيش بعيدا عن حب المـدن وزيف المدنية عيشة أقرب الى الفطرة وأدنى الى الطبيعة .

هذه أمثلة من تباين الأجوبة التى تلقيتها على ذلك السؤال البسيط : "من هو الفلاح" ترى هل الفلاح هو كل أولئك وهل تمثله جميع تلك الصور المختلفة . نعم . الفلاح هو رأس مال مصر والعامل المنتج فيها ، وهو مع ذلك المريض الذى يعز عليه العـلاج وهو الفقير القنوع الذى يعيش دون عيشة الكفاف حتى الصورة الباهرة التى يرسمها له الأديب لا تخلو من حقيقة ظاهرية غير أن الخير الذى ينعم بعض كبار الزراع هو خير وهمى قائم غالبه على الاستدانة لحفظ المظاهر الخادعة .

الفلاح هو الذى يكوّن تسعين فى المئة من هذا البلد والعشرة فى المائة الباقية تتحدر منه .

والفلاح هو الذى ينتج بعمله فى الحقل ثروة هـذا البلد من محاصيل غذائية تسد حاجة الشعب ومحاصيل للتصدير كالقطن نشترى بها ما ينقصنا من منتجات صناعية وغيرها من الخارج وهو الذى بكده وصبره يمكننا من أن نعيش فى المدن عيشة المدنية والرفاهية .

الفلاح هو الذى يغذى المصانع والمرافق بالأيدى العاملة .

الفلاح هو الذى يكون الجيش المصرى ويلبى نداء الوطن ويفديه بدمه وروحه . أما أخلاقه فهى جديرة بكل احترام وإعجاب فقد جبل على الصبر والايمان بالله وعلى المصابرة والكرم وعفة اللفظ وتقدير الواجب .

هذا هو الفلاح الذى ندين له بكل شىء ولا يقصر فى أداء واجباته كمواطن شريف .

هذا الفلاح قد أهمل شأنه أحقابا طويلة ظل خلالها محروما نعمة الصحة ونعمة التعليم ونعمة المدنية ونعمة هناءة العيش فاذا كان الفلاح فقيرا مريضا جاهلا متأخرا فلا يلام على شىء من ذلك فليس الذنب ذنبه وإنما ذلك جدير بأن يزيد من شعورنا بالواجب نحوه .

وإنه لما يدعو الى اطمئنان الفلاح والأمة — من ورائه — أن المفكرين وأولى الأمر بدأوا يعنون بالفلاح وتحسين حاله ، فتعددت الهيئات التى تسعى لخدمته وتوالت الأبحاث التى ترمى الى النهوض به وأنشئت السلطات التى تعنى بشخصه وبقريته وتوج ذلك كله بانشاء وزارة الشؤون الاجتماعية التى جعلت أولى مهامها رفع شأن الفلاح وتحسين حاله من الوجوه الاقتصادية والاجتماعية والأدبية . ومن أنجع الوسائل التى تتخذها هذه الوزارة لتحقيق تلك الغاية نشر نظام التعاون وتدعيمه وتأسيس الجمعيات التعاونية فى كافة القرى لعلمها أن أى إصلاح لا يمكن أن يثمر الثمرة المرجوة الدائمة إلا إذا ساهم فيه الفلاح بنفسه وأقبل عليه برغبة صادقة فيه وإيمان بنفعه . وهذا شأن التعاون الذى يقوم على توحيد جهود الأفراد لخدمة كل فرد منهم وخدمة مجموعهم فى وقت واحد عملا بشعار التعاون القائل : الفرد للمجموع والمجموع للفرد .

وقد اتجهت نية أولى الأمر الى إسعاد الريف وأهله حتى يتوافر لهم ما ينقصهم الآن من وقاية وعلاج ومن تعليم وتثقيف ومن مستوى لائق للعيشة سواء فى المسكن أو المأكل أو الملبس أو الترويح عن النفس .

وقد اختلفت آراء الباحثين من أى النواحى نبدأ الاصلاح ففريق يرى البدء بتعليم الفلاح ، وثان يرى أن العناية بصحته أجدى وثالث يفضل الاتجاه أولا الى تحسين حالته الاقتصادية وهكذا ، إلا أنا نرى أن الاصلاح المنتج يجب أن يبدأ فى كل الاتجاهات فى وقت واحد إذ ما الفائدة من تعليم الفلاح مبادىء الصحة والنظافة إذا عجز عن شراء الصابون وما الفائدة من إرسال أبناء الفلاحين الى المدارس الالزامية إذا كانوا يذهبون جياعا لا يمكن أن يعلق بعقولهم ما يسمعون ؟ على أن الناحية الجديرة بأكبر قسط من العناية هى فى نظرنا تحسين حالة الفلاح الاقتصادية وزيادة دخله فاذا لم تخف عنه وطأة الفقر فلا صلاح لحاله . وبمجرد رواج الفلاح اقتصاديا يجعله يحسن مسكنه وتغذيته ويعنى بصحته ويعلم أولاده ولا يتأخر متى ساعدته الحال عن المساهمة فى خدمة قريته ببناء مسجد أو التبرع بقطعة من الأرض لإقامة مستشفى . على أنه مهما كانت رغبة الحكومة صادقة فى النهوض بالفلاح فلا يمكن أن تتم غايتها إلا إذا عاونتها عليها جهود من الشعب .

فالغالبية العظمى منا إما من الريف أو متصلة به أوثق الصلة وفى عنق كل منا واجب نحو الفلاح وكل مطالب بأداء هذا الواجب وكل قادر على المساهمة فى الاصلاح فى قريته أو محيطه وأى مجهود يبذل باخلاص لابد أن يثمر مهما يكن متواضعا .

وليذكر كل منا دائما أن الفلاح هو الأمة المصرية بل هو مصر فى الحقيقة يقاس تقدمها بتقدمه وتأخرها بتأخره ولا وزن فى ذلك لبعض مظاهر التقدم والمدنية الخلابة فى المدن الكبرى .

من هو الفلاح ؟

آمل أن يكون الجواب على ذلك بعد سنوات مقدودات جوابا واحدا يختلف كل الاختلاف عن معظم الأجوبة التى ذكرتها تفصيلا .

آمل أن يصبح الفلاح المصرى بعد مضى سنوات على جهود وزارة الشؤون الاجتماعية ووزارات الصحة والمعارف وغيرها وجهود الهيئات الأهلية والمفكرين والمصلحين قد شابه الفلاح الأوربى وأصبح أرغد أهل البلاد عيشا وأوفرهم صحة .

أحمد حسين